ربما كان لتنامي النظر المعاصر للإسلام الشامل، مع بزوغ فجر القرن العشرين تحديدًا، أثره الواضح في شيوع ما يمكن أن يسمى بالأبعاد الحضارية لاستلهام السيرة النبوية في التصنيف المعاصر، وهو الأمر الذي هيمن على مناهج التجديد في كتابة السيرة النبوية الطاهرة في الشرق والغرب معًا بسبب تطور الحياة المعاصرة، وتقدم المنهجية العلمية، وأهمية دراستها من زوايا نظر جديدة تتواءم مع طبيعة الدرس العلمي المعاصر.

الأبعاد الحضارية للتصنيف المعاصر في السيرة النبوية

د. خالد فهمي

إن أمرًا مهمًّا جدًّا كان له أثره في الكشف عن الأبعاد الحضارية في محاولات دراسة السيرة النبوية في التصنيف المعاصر، يتمثل في إرادة الشعوب العربية والإسلامية إحياء أوطانها وفق النموذج الإسلامي باعتبارها بلدانًا إسلامية يحكم وجدانها سياق عام يسيطر عليه الدين الإسلامي، ومن هنا صارت السيرة النبوية النموذج الحاكم الذي يتم استحضاره، تحقيقًا لاستقامة أحوال هذه المجتمعات المعاصرة بعد زمن طويل من الغزو الغربي من جانب، ومحاولات التشويه والاستبداد العلماني من جانب آخر.

لقد استُحْضرت السيرة النبوية في الأوضاع الراهنَة لتجاوز ضعف ظاهر، وكان أهم مبررات ذلك الاستحضار النجاح المبهر للنموذج النبوي كما تصوره السيرة النبوية في الانتقال النوعي بالحياة الإنسانية من عهودها المظلمة إلى عهود أخرى ترعى القيمة الإنسانية، وتوازن في تعاملها بين الشق المادي والشق الروحي للإنسان معًا.

ثمة أمر آخر كان له أثره المهم كذلك في الكشف عن الوجه الحضاري الكامن في السيرة النبوية تكفل به الدرس المعاصر لها، ألا وهو تنامي ظهور الحركات الإسلامية، ولا سيما التي تتبنى عن وعي حقيقي خيار الدعوة إلى الإسلام الشامل كمنظومة تشريعية قادرة على قيادة الحياة في أبعادها المختلفة.. التعبدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وفي مجال العلاقات الدولية وغير ذلك.

وقد كان للعلماء المنتمين لحركات النهضة والإصلاح منذ محمد عبده والأفغاني ورشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، كان لهم أثر ظاهر في تطوير درس السيرة النبوية في التصنيف المعاصر، بما أتاحوه لهذا الدرس من نقلة نوعية من مرحلة كان المنهج التاريخي هو الغالب عليه إلى العناية بالكشف عن الأبعاد الحضارية لهداية المجتمعات العربية والإسلامية في هذه السيرة، لتحقيق كامل عودة الأمة إلى التصورات الإسلامية الحاكمة لحركة الإنسان في الحياة، وهي العودة الكفيلة بتحقيق تمدنه وارتقائه.

ومن هنا فإن النظر إلى السيرة والسنة النبوية باعتبارهما شيئًا واحدًا، وأصلًا عامًّا حاكمًا في ضبط حركة الإنسان المسلم على هذه الأرض، هو ما رشح استحضار النموذج النبوي الكريم لإعادة إحيائه في الواقع المعاصر المأزوم.

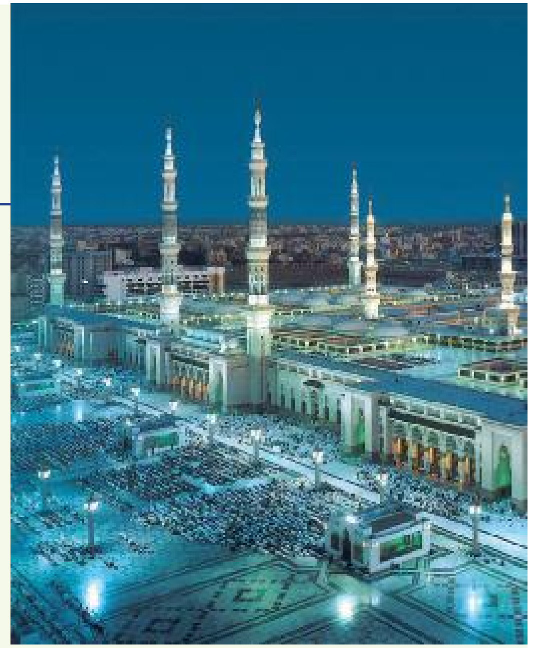
السيرة النبوية مصدرًا للحضارة

تعرف الحضارة في المعجمية العربية المعاصرة، على ما جاء في المعجم العربي الأساس(حضر ٣٢٧) (طبعة لاروس سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) بأنها: «مجموع الخصائص الاجتماعية والدينية والخلقية والتقنية (أي: التطبيقية) والعلمية والفنية الشائعة في شعب معين».

وقد أدرك الدرس المعاصر أن السنة أو السيرة بما هي مرادفة للسنة تمثل مصدرًا للحضارة، وأن سيرة المصطفى ﷺ وتجربته في الحياة والقيادة والإرشاد نجحت في الانتقال بالعرب من مرحلة البداوة والهمجية والجهل والأمية إلى أجواء التمدن والارتقاء المادي والعلمي والأدبي والاجتماعي والفني والروحي.

ويكشف د. القرضاوي في كتابه «السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة» (دار الشروق ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٢٠٣)، أن عددًا كبيرًا من أحداث الإسلام الكبرى كالهجرة مثلًا كان من مقاصده تحقيق الانتقال بالأمة المسلمة إلى مراحل الحضارة: «وقد كان من مقاصد الهجرة إلى المدينة التي فرضت على كل من أسلم من قبائل العرب قبل فتح مكة: إتاحة

كلية الآداب - جامعة المنوفية - مصر



الفرصة لهم ليتعلموا ويتثقفوا بثقافة الإسلام الجديدة، التي تلزمهم بالجماعة والجمعة وتهيئ لهم حضور مجالس العلم، والتأدب بآداب الإسلام التي صبغ بها الحياة كلها، حتى في المآكل والمشرب والملبس والمشي والجلوس، وسائر شؤون الحياة كبيرها وصغيرها»، وجعل السيرة النبوية الشريفة تمثل في النظر العلمي قديمًا وحديثًا شرقًا وغربًا مصدرًا محوريًا لتحقيق الانتقال بالأمة من أجواء البداوة والوحشية والهمجية والتراجع إلى أجواء الارتقاء المادي والروحي معًا.

ومن ثم غدا النظر إلى السيرة النبوية بما مارسته في ميادين الزراعة والاقتصاد وتنظيم الأسواق، والعمارة، والتطبيب والمداواة، ومحاصرة الأمراض، وإجراءات الصحة العامة، وتدابير الحفاظ على البيئة وغيرها من جانب، وبما ورثناه عنها في ميادين السلوك الحضاري وطرائق التعامل وصنوف الاجتماعيات المختلفة من جانب آخر - أساسًا لازمًا في حركة المجتمعات العربية التي تمثل لها السيرة النبوية مرجعية هادية على طريق تمدينها وتحضرها، أو هكذا ينبغي أن تكون.

منهجية معالجة السيرة النبوية من منظور حضاري كلي

وقد كان ظهور منهجية معالجة السيرة النبوية في التصنيف المعاصر من منظور يرعى الأبعاد الحضارية بشكل عام وكلي أسبق زمنيًا من غيره، حيث عالج عددٌ من العلماء المعاصرين السيرة النبوية بأبوابها المختلفة على ترتيب أحداثها التاريخية مع العناية الظاهرة بما يمكن أن تقدمه من حلول للمشكلات المعاصرة، بحيث كان استحضار أحداث السيرة مقصودًا من ورائه استلهام ممارسات عصر النبوة الكريم للانتقال بالمجتمعات المعاصرة من وهدتها وتراجعها إلى أجواء المدنية والتحضر والارتقاء وتجاوز الضعف والانهيار.

وفي هذا السياق تأتي مؤلفات مهمة معاصرة استهدفت إحداث حراك نحو البناء الحضاري للأمة رقيًا وتقدمًا عن طريق استلهام أحداث السيرة باعتبارها نموذج قدوة قابلًا للنقل، وإعادة الاستحضار.

ومن أهم هذه المؤلفات:

مصطفى السباعي: في السيرة النبوية.. دروس وعبر.

محمد الغزالي: في فقه السيرة.

منير الغضبان: في المنهج الحركي للسيرة النبوية.

هذه المعالجات ومن يسير على منهجيتها تسرد أحداث السيرة وفق تتابع وقوعها تاريخيًا مع العناية بما يمكن استخلاصه واستلهامه لدفع القوة الحضارية للأمة في التاريخ المعاصر.

وقد ظهر من القراءة الدقيقة لهذه المعالجات ما يمكن أن يمثل قواعد حضارية حاكمة في مسيرة الأمة المسلمة، يمكن لمقتضيات المقام أن نذكر عددًا منها كما يلي:

المرونة في النقل عن الآخر الحضاري: يقول مصطفى السباعي- رحمه الله- : «وفي قبوله ﷺ إشارة سلمان بحفر الخندق، وهو أمر لم تكن تعرفه العرب من قبل، دليل على أن الإسلام لا يضيق ذرعًا بالاستفادة مما عند الأمم الأخرى من تجارب تفيد الأمة وتنفع المجتمع، فلاشك أن حفر الخندق أفاد إفادة كبرى في دفع خطر الأحزاب عن المدينة، وقبول رسول الله ﷺ هذه المشورة دليل على مرونته ﷺ واستعداده لقبول ما يكون عند الأمم الأخرى من أمور حسنة».

وهذا التطبيق العملي واحد من الأبعاد الحضارية بالمعنى الذي تعرفه دراسات الحضارة، وهو دال على ضرورة تنبه الأمة في عملية النقل والتحديث إلى ما يجب مراعاته من ضوابط في هذا النقل.

احترام المنجزات الحضارية: ولو كانت للعدو باعتبارها تراثًا إنسانيًا، وتطبيقات هذه القاعدة الحضارية ماثلة وحاضرة حضورًا ظاهرًا في حروب المسلمين، فقد تواترت النصوص على النهي التام عن حرق النخيل، أو اقتلاع الأشجار، أو ردم الآبار، أو هدم المعابد، وهذه أمور مهمة جدًا تعكس الوجه الحضاري بأبعاده المختلفة الذي حرص التصنيف المعاصر في السيرة النبوية على تجليته وبيانه.

لقد كشفت دراسات السيرة النبوية وفق المنهجية الكلية أن للإسلام فضلًا كبيرًا في الحفاظ على التراث الإنساني بما أمر به ونفذه من حفاظه على المؤسسات والمظاهر الحضارية التي أنشأها الإنسان، ولو كان هذا المنجز الحضاري ناتج جهد أمة أو شعب معاد للمسلمين، تورط في حرب الإسلام ومواجهته، واستبقاء آثار الأمم المختلفة التي تعرضت لحركة الفتوحات الإسلامية خير شاهد على هذه القاعدة الحضارية.

احترام قيم العلم والمعرفة: وهذه القاعدة الحضارية ماثلة كذلك في معالجات السيرة النبوية الكلية في العصر الحديث، حرص الدارسون على الكشف عن تطبيقاتها، مثل منير الغضبان عندما وقف طويلًا أمام تطبيقاتها في المناقشات التي سبقت قرار الهجرة إلى

الحبشة تحت عنوان ظاهر الدلالة على هذه القاعدة، وهو «اختيار الأرض.. وسرية التجمع فيها والهجرة إليها»، وهو الأمر الذي يحكمه تمامًا في حديثه المباشر للحركة الإسلامية المعاصرة على ما يقرره مثلًا (١٨٥/١) عندما يقول: «والحركة الإسلامية اليوم وهي تقتدي برسول الله ﷺ في إنشاء دولتها لابد أن تراعي هذه المعاني وتفقه دروسها».

هذه ثلاث فقط مما أسميه بالقواعد الحضارية الحاكمة التي حرص المصنفون المعاصرون في السيرة النبوية على بيانها، والكشف عنها؛ لتكون تقدمة بين يدي نهضة شعوب العالم الإسلامي، شريطة الاستحضار الواعي لمعالمها المختلفة.

منهجية معالجة السيرة النبوية من منظور حضاري جزئي

وفي مرحلة تالية لظهور منهجية معالجة السيرة النبوية من منظور حضاري كلي ظهرت دراسات انشغلت بمعالجة قطاعات جزئية تفصيلية خاصة بموضوع معين من قطاعات الدرس الحضاري لهذه السيرة، منها دراسات تعنى بمعالجة السيرة للجوانب التعليمية أو التربوية، أو لجوانب الطعام والمطعومات والتغذية، أو أنماط الملابس ووظائفها النفعية والجمالية، أو خصائص التطبيب والتداوي ومميزاته، أو البعد السياسي، أو الدبلوماسي، أو الأمني، أو النفسي... إلى غير ذلك من الموضوعات التفصيلية الداخلة في المفهوم الشائع للحضارة.

والحق يقضي بأن نقرر أن العلماء على اختلاف تخصصاتهم أسهموا في خدمة هذه المنهجية الجزئية الحضارية في معالجات السيرة النبوية في العصر الحديث؛ بمعنى أن علماء السنة والسيرة مع علماء الطب مع علماء الأمن والسياسة، مع علماء التخصصات المختلفة، كل في مجاله تعاونوا جميعًا على الكشف عن الأبعاد الحضارية الكامنة في السيرة النبوية.

> **سيرة المصطفى ﷺ نجحت في الإنتقال بالعرب من مرحلة الهمجية والبداوة إلى أجواء التمدن والإرتقاء**

وقد نبه عدد من علماء الشريعة والسنة إلى أن الكشف عن هذه الأبعاد الحضارية ظل محكومًا ومحدودًا بما يمكن تسميته بالإطار الإرشادي للأمة.

يقول العلامة د. القرضاوي: إن عددًا من هذه الأبعاد الحضارية داخل في إطار ما يطلق عليه الأصوليون بأمر الإرشاد ونهي الإرشاد، ثم يمثل على ذلك فيقول (ص ٦٦) من كتابه السنة النبوية مصدرًا للمعرفة والحضارة: «وفي رأيي أن جل الأحاديث المتعلقة بالوصفات الطبية وما في معناها... هي من باب الإرشاد»، والمعنى الذي يبتغيه من وراء هذه الاستلهامات هو أن الأمة في رحلة انتقالها لمراحل الحضارة يلزمها تطبيق القواعد الحضارية الكامنة وراء هذه التفصيلات، فيلزمها العناية بالطب والاقتصاد والزراعة والتعليم ووضع الخطط التفصيلية، كما كان يفعل عصر النبوة الكريم في هذا السياق مما حقق للعرب الانتقال من أجواء الهمجية والوحشية إلى آفاق رحبة من التمدن.

وفي هذا السياق التفصيلي الجزئي تأتي المعالجات التالية لتكشف عن الأبعاد الحضارية في مناطق تفصيلية تمثل مصابيح على الطريق في العصر الحديث؛ وفيما يلي رصد لرؤوس بعض الموضوعات التي عالجها التصنيف المعاصر في السيرة النبوية:

١ – <u>في تكوين الإنسان وبنائه الذاتي</u>: صفاء الابتداء والبدء النابض للجيل الصاعد، لعبدالفتاح شاهين، ومنهج النبي ﷺ في تربية جيل النصر، لعبدالرحمن البر.

٢ – <u>في منهجية التعليم</u>: السمات العشر للنبي المُعَلم، لعبدالرحمن البر.

٣ – <u>في التغذية وأنواع الطعام وجلب فوائده وتجنب مضاره</u>: التغذية النبوية، لعبدالباسط محمد السيد، والأطعمة والأشربة في عصر الرسول ﷺ، لمحمد بن فارس الجميل.

٤ – <u>في الملابس ووظائفها</u>: اللباس في عصر الرسول ﷺ، لمحمد بن فارس الجميل.

٥ – <u>في مجال الأمن السياسي</u>: تأملات إعجازية للنبي ﷺ في مجال الأمن السياسي، لصادق حسين.

٦ – <u>في المجال الإعلامي</u>: الإعلام في صدر الإسلام، لعبداللطيف حمزة.

٧ – <u>في المجال النفسي</u>: الحديث النبوي وعلم النفس، لمحمد عثمان نجاتي.

٨ – <u>في مجال البيئة والحفاظ عليها</u>: محمد عليه السلام رائد الحفاظ على البيئة، لفرانسيسكا دوشاتل، ترجمة إبراهيم عوض.

٩ – <u>في الدبلوماسية والمفاوضات</u>: الدبلوماسية النبوية، لعبدالرحمن أبي المجد.

في هذه المجالات التسعة، والتي هي قابلة للزيادة بلاشك، يظهر لنا أمرٌ مهم جدًا متمثل في الوعي المعاصر بما يمكن أن تقدمه السيرة النبوية إذا ما عولجت من منظور حضاري يرعى أمر الارتقاء بالأمة.

وتؤكد هذه الدراسات على أن تحقيق التمدن للمجتمعات الإسلامية يلزمه فحص السيرة النبوية واستخلاص القواعد الحضارية في المجالات التفصيلية، واستلهامها لدعم مسيرة هذه المجتمعات المعاصرة وفق تحكيم المرجعية الإسلامية، كما تعرضها دراسات السيرة النبوية.